

المقاومة الثقافية في موريتانيا من خلال مؤسسة المحضرة⁽¹⁾

محمود محمد أمين

أستاذ تاريخ
جامعة نواكشوط

يسعى هذا البحث إلى إبراز وتحليل جوانب من المقاومة الثقافية التي واجه بها الموريتانيون التوغل الفرنسي داخل البلد والتي اضطلعت المؤسسات المحضرية بالدور الحاسم فيها.

وسنسلط الأضواء على هذا الجزء من تاريخنا الثقافي الذي لم يحظ لحد الساعة بما يستحقه من دراسة وتمحيص. لذلك فإننا سنخصص جزءا مهما من هذا العمل للحديث عن المؤسسة المحضرية من حيث التصنيف والنشأة والتطور والسمات العامة قبل تناول الأدوار التي تضطلع بها ومن ضمنها المقاومة الثقافية هذا فضلا عن استعراض التحديات التي تواجه هذه المؤسسات وإبداء بعض المقترحات بخصوص ما يمكن أن تؤديه من أدوار في الظروف الحالية.

La résistance culturelle en Mauritanie à travers la *Mahdhara*

Résumé

La présente étude traite de la résistance culturelle menée par les Mauritaniens contre la culture européenne. La *Mahdhara* a joué un rôle prépondérant dans cette résistance à travers son attachement à la langue arabe et à l'Islam.

(1) درس قدم لطلبة المدرسة العسكرية للأركان في نواكشوط خلال شهر إبريل 2009 وتمت مراجعته وتقديمه للدفعة الموالية بنفس المدرسة خلال شهر يناير 2010.

Les *Mahdhara* sont des écoles traditionnelles, ayant des rôles social-culturels importants.

Sa contribution dans le domaine de la résistance culturelle, s'articulait autour de la sauvegarde du patrimoine culturel de la Nation, du rejet de la civilisation conquérante, de l'attachement à la langue arabe et à la religion musulmane et du refus de fréquenter l'école française.

Mots clefs :

Résistance, pénétration coloniale, culture, Mauritanie, France, colonisation, patrimoine, langue arabe, Islam, enseignement traditionnel

Cultural resistance in Mauritania through the Mahdhara institution

Summary:

This study deals with the cultural resistance undertaken by the Mauritaniens against the European culture. The *Mahdhara* performed a preponderant role in this resistance through its attachment to the Arabic language and Islam.

The *Mahdhara* are traditional schools, performing important socio- cultural roles.

Their contribution in the domain of cultural resistance was articulated around safeguarding the Nation's cultural heritage, rejection of conquering civilization, attachment to the Arabic language and Islamic religion and refusal to attend the French school.

Key words:

Resistance, colonial penetration, culture, Mauritania, France, colonization, heritage, Arabic language, Islam, traditional education.

التعريف والتصنيف :

نقصد بالتعليم الأصلي أو المحضري ذلك النمط من التعليم الذي يتم في مدارس أهلية طوعية قرآنية أو فقهية. وقد ظلت هذه المحاضر⁽²⁾ وهي

(2) للمزيد من التفاصيل عن مدلول هذه التسمية وأدوار هذه المؤسسات الثقافية، تمكن مراجعة :
 ✓ الخليل النحوي، بلاد شنقيط، المنارة.. والرباط. عرض للحياة العلمية والإشعاع الثقافي والجهاد الديني من خلال الجامعات البدوية المتنقلة (المحاضر)، تونس، 1987، ص. 48 وما بعدها.
 ✓ المختار بن حامد، حياة موريتانيا، الحياة الثقافية، الدار العربية للكتاب، تونس، 1990، ص. 197 وما بعدها.

مؤسسات ذات وظائف متعددة (اجتماعية وثقافية وتربوية) تنتشر المعارف العربية والإسلامية بمختلف فنونها في ربوع الصحراء ومنها في المناطق الإفريقية المجاورة، وما تزال المحاضرة تضطلع بهذه المهمة في نقاط عديدة من موريتانيا مستقبلة طلابا موريتانيين وغير موريتانيين يفدون إليها من كل فج رغم قوة اكتساح منافستها المدرسة النظامية وشح مواردها وقسوة ظروف الدرس بها.

والمحاضرة أو "المحطرة" في اشتقاقها اللغوي اسم مكان (مفعلة) يحتمل تفسيرات إيتيمولوجية عديدة لعل من أكثرها وجاهة :

- أن تكون مشتقة من فعل حظر أي منع بوسيلة مادية أو معنوية، فهي ماديا الحظيرة التي كثيرا ما كانت تحيط بخيمة شيخ المحاضرة ومصلاه وعرائش طلبته لحمايتها من الحيوانات وغيرها. وتقام هذه الحظائر عادة فور حلول المخيم بأي مكان جديد يتم النزول فيه. أما من الناحية المعنوية فقد يتصل هذا الاشتقاق بالحظر الذي يمارسه الشيخ على الطالب المحضري بمنعه من التجوال داخل الحي والاختلاط بأهله والانغماس في مشاغلهم الدنيوية وإلزامه بالإقامة في أعرشة الطلبة والتفرغ للعلم؛ أو هو متأت من الهيبة والحماية الروحية التي يتمتع بها شيخ المحاضرة ومؤسسته وحتى طلابه. وتقتضي هذه الحماية حظر ارتكاب المخالفات بحرم المحاضرة وحماية من لجأ إليها حتى يكون في مأمن من النهب والسلب وغيرهما من الممارسات التي كانت شائعة في المنطقة خلال القرون الماضية. وبالعودة إلى القواميس نجد لفظ احتظر بكذا تعنى احتمى به (3). وقد كانت المحاضرة منذ نشأتها ملجأ الخائف وملاذ المستضعف من غارات النهابين والظلمة.

✓ دود ولد عبد الله، الحركة الفكرية في بلاد شنقيط خلال القرنين الحادي عشر والثاني عشر (17-18م)، بحث لنيل دبلوم الدراسات العليا في التاريخ (دكتوراه السلك الثالث)، جامعة محمد الخامس، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، الرباط، 1992-1993، ص. 70 وما بعدها.

✓ محمود محمد أمين، المحاضرات الموريتانية (الجامعات البدوية المتنقلة)، مجلة التاريخ العربي، العدد الثاني والعشرون، الرباط، 2002، ص ص. 339-361.

(3) إبراهيم مصطفى، المعجم الوسيط، المكتبة العلمية، طهران، بدون تاريخ، جزآن، مادة حظر.

- أن تكون مشتقة من فعل حضر أي مكان حضور المحاضرة، وقد يكون هذا الحضور كذلك ماديا أو معنويا، فهو مادي لأن الطالب يحضر بجسمه محاضرة الأستاذ، ومعنوي لأن فيه تجردا من الدنيا وهمومها وإقبالا على التعلم والتعليم خالصا لوجه الله تعالى. (4)

ويدعم هذا الاشتقاق الأخير ورود كلمة محاضرة في بعض كتب التراث العربي الإسلامي دالة على معنى المدرسة مثل ما هو الشأن في رحلة ابن جببر. (5) ومعيار الونشريسي. (6)

وقد كان هذا الانسلاخ عن مشاغل الحياة الدنيا والحضور المادي والمعنوي للعلم الشرعي لصيقا بالمقصد من وراء إقامة التعليم الديني أصلا بهذا "المنكب البرزخي" (7).

وانطلاقا من ذلك يمكن تصنيف التعليم الأهلي في موريتانيا إلى صنفين رئيسيين هم:

1. المدارس القرآنية :

وتتخصص وظيفتها في تعليم القراءة والكتابة للمبتدئين وتحفيظ النص القرآني لا أكثر. ونحن نرى ضرورة إخراج هذه المدارس من التصنيف المحضري مراعاة للاصطلاح المحلي الذي يخرجها من دائرة التعليم

(4) للمزيد من المعلومات التفصيلية يمكن الرجوع إلى :

- ✓ محمد الصوفي ولد محمد الأمين، المحاضر الموريتانية وآثارها التربوية في المجتمع الموريتاني، رسالة ماجستير، جامعة الملك سعود، 1406؛
- ✓ محمد بن عبد الحي، المحاضرة : (ماهيتها، نشأتها، تطورها، بنيتها ومحتواها، وظيفتها)، عرض مقدم لندوة عن المحاضر في موريتانيا، نواكشوط، يوليو 1998؛
- ✓ محمد المصطفى ولد الندى، دور المحاضر في موريتانيا، مذكرة تخرج، المعهد العالي للدراسات والبحوث الإسلامية.

(5) ابن جببر، الرحلة، دار صادر للطباعة والنشر، بيروت، 1964.

(6) أحمد الونشريسي، المعيار المغرب والجامع المغرب عن فتاوي أهل إفريقية والأندلس والمغرب، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1401هـ، ج. 7، ص. 156.

(7) إحدى التسميات التي عرفت بها البلاد الموريتانية دلالة على توسطها بين المجتمعات ذات التنظيم المركزي شمال وجنوب الصحراء.

المحضري ويميزها بمصطلح "قراءة اللوح" أو "اللوحة" المختلف عن المحاضرة في :

✓ قسرية برنامج التعليم؛

✓ فردية التعليم؛

✓ صغر سن المتعلمين غالباً.

ويمتاز هذا الصنف من المدارس بانتشاره الواسع في البلاد بحيث لا يخلو حي بدوي من مدرسة أو مدارس منه مما يعكس مدى إسهامه في نشر مستوى أولي من التعليم بين السكان.

2. المحاضر :

ويمكن تصنيفها تبعاً لمحتوى المادة العلمية المدرّسة ومؤهلات الشيخ العلمية ونوعية الطلاب إلى مستويين اثنين هما :

أ. المحاضرة الفقهية :

وتختص بتدريس علوم القرآن والفقه والعقيدة، فشيخها قادر على تدريس علوم الغاية دون سواها. وهذا الصنف من المحاضر هو الذي يستحق حسب اعتقادنا صفة المحاضرة المتخصصة، سواء تحدثنا عن تخصص عمودي يراعي مستوى الدرس بهذه المحاضرة أو عن تخصص أفقي ينطلق من حصر المضمون المعرفي.

ب. المحاضرة الجامعة :

وهي التي تجمع بين علوم الغاية وعلوم الآلة معا (تجويد، تفسير، حديث، أصول، نحو، بلاغة، حساب، منطق، إلخ)، ولا ينتصب للتدريس في هذه المحاضر إلا شيخ متبحر في مختلف العلوم الشرعية واللغوية والأدبية.

وهذا الصنف من المحاضر هو الذي أعطى هذا الركنَ القصي من ديار الإسلام صيته العلمي بما احتضن من جدالات علمية خصبة وبما أنتج من

تأليف أصيلة تنزل الأحكام الشرعية على الوقائع اليومية لحياة البداوة (8) والسبية وبما أصدر من خريجين ذاع صيتهم في العالم الإسلامي.

النشأة والتطور:

إن فهم الدور الذي يمكن أن يضطلع به التعليم المحضري في نشر المعرفة أفقياً داخل البلاد خدمة لمتطلبات التنمية يقتضي النظر إلى ظروف نشأته والمراحل التي مر بها.

ولا يُستبعد احتمال ظهور مستوى ما من التعليم الديني في صحراء الملثمين مع دخول الإسلام إليها أواسط القرن الثاني الهجري/الثامن الميلادي. ويُفترض أن يكون التجار قد اضطلعوا بدور بارز في هذا الصدد حيث تمكنوا من ترسيخ الاهتمام بالقراءة والكتابة وبث الوعي الديني والخلقي.

وبغض النظر عن رباط عبد الله بن ياسين (ت. سنة 451هـ/1059) التعليمي فإن الشائع في الروايات الشفهية المتداولة حتى الآن أن الأمير اللمتوني أبا بكر بن عمر (ت. سنة 480هـ/1087) بعد انفصاله عن ابن تاشفين (ت. سنة 500هـ/1106) بالمغرب وعودته إلى الصحراء جاء معه بفقهاء (9) لتأسيس مدارس في هذه المنطقة ربما تكون هي البذور الأولى للمؤسسات المحضرية التي ميزت التاريخ الموريتاني منذ ذلك الحين وإلى يوم الناس هذا. وتسمح المعطيات المتوفرة حتى الآن باعتماد تحقيق أولي قد لا يخلو من تخمين لتاريخ هذا التعليم نوجزه في ما يلي :

1. مرحلة المدن :

يعتقد بعض الدارسين (10) أن النشأة الفعلية للمحاضر بصحراء الملثمين تعود إلى ظهور الدعوة المرابطية بها، إذ "كان العلم حضرياً في عهد

(8) من أكثر الأمثلة تعبيراً عن ربط الفقه المحظري بالحياة البدوية كتاب البادية الذي يؤسس لفقه البادية. انظر : الشيخ محمد المامي (ت. سنة 1292هـ/1875)، كتاب البادية، مخطوط بحوزتنا صورة منه.

(9) هؤلاء الفقهاء هم : الحضرمي المرادي، إبراهيم الأموي وعبد الرحمن الركاز.

(10) نذكر منهم :

- المختار بن حامد، حياة موريتانيا، الحياة الثقافية، مرجع سابق؛

- الخليل النحوي، بلاد شنقيط، المنارة والرباط، مرجع سابق.

المرابطين وقرونا من بعدهم" (11) كما يقول الخليل النحوي الذي اختار لهذه المرحلة عنواناً له دلالاته هو "الحواضر مهد المحاضر" (12)، ذلك أن حواضر مثل أوداغست وتينكي وولاته وتيشيت وودان وشنقيط كانت مراكز علم مكيئة احتضنت المؤسسات المحضرية الأولى في هذه "البلاد السائبة" (13).

وكانت معظم تلك المدن واحات ومراكز تجارية اضطلعت أيضاً بأدوار تجارية مهمة، إذ كانت من المحطات الهامة في مسالك التجارة الصحراوية. (14) وقد عرفت هذه الحواضر فترات ازدهار اقتصادي يرجح أن تكون لها صلة بالنهضة العلمية والأدبية بها "إذ لا بد لكل ثقافة من فائض اقتصادي" طالما أن الثقافة "استهلاك، بل هي إسراف" (15) حسب تعبير فردينان بروديل (Braudel)، وحسبما كان ابن خلدون قد أشار إليه حين اعتبر ضعف العمران وانقطاع الدعم عاملاً في الركود الثقافي على عهده (16).

(11) الخليل النحوي، بلاد شنقيط، المنارة .. والرباط، مرجع سابق، ص. 66.

(12) المرجع والصفحة ذاتهما.

(13) "البلاد السائبة" أو "بلاد الفترة" من التسميات المحلية التي أطلقت على البلاد الموريتانية خلال القرون الماضية وذلك إشارة إلى غياب السلطة المركزية وانتشار الفوضى في هذه الأصقاع. وممن استخدموا هذه التسمية :

- الشيخ سيدي محمد بن الشيخ سيدي المختار الكنتي (ت. 1226هـ/1811)، الرسالة الغلاوية، مخطوط.

- الشيخ سيدي الكبير (ت. 1284هـ/1868)، الميزان القويم والصراط المستقيم، مخطوط.

- الشيخ محمد المامي، كتاب البادية، مخطوط.

(14) الناني بن الحسين، صحراء المثلثين وعلاقاتها بشمال وغرب إفريقيا من منتصف القرن الثامن إلى نهاية القرن الحادي عشر الميلادي، أطروحة دكتوراه في التاريخ، جامعة محمد الخامس، الرباط، 1999، 771 ص.

(15) النص الفرنسي لهذه القولة هو :

«Il faut à toute culture un excédent, un surplus économique. La culture est consommation, voire gaspillage», Fernand Braudel, Ecrits sur l'histoire, Paris, Flammarion, 1984, p. 298.

(16) يقول ابن خلدون في هذا السياق : "وقد كسدت لهذا العصر أسواق العلم بالمغرب لتناقص العمران فيه وانقطاع سند العلم والتعليم". انظر : ابن خلدون، المقدمة، دار الجيل، بيروت، د.ت.، ص. 484.

2. مرحلة البادية :

إذا كانت المحاضرة قد نشأت - منذ المرحلة المرابطية على الأقل - في الحواضر، فإنها سرعان ما أصبحت مؤسسة تربوية بدوية من حيث الأساس، إذ انتشرت من المدن إلى الأرياف مغطية المجال الشنقيطي الفسيح من ضفاف المحيط الأطلسي إلى أزواد ومن نهر السنغال إلى الحدود الجزائرية والمغربية.

وفي أرجاء الصحراء الموريتانية المترامية الأطراف وعلى ضفاف المحيط والنهر تكاثرت المحاضر وتشعبت وأصبحت بمثابة "جامعات بدوية متنقلة" (17) على ظهور العيس تعرف نوعا من الإبداع والإنتاج العلمي والأدبي في محيط بدوي لا عهد له بالدولة المركزية ولا وجود فيه لل عمران.

وهكذا عرفت - لأول مرة في التاريخ على ما يُعتقد - أولُ بادية تتعاطى الثقافة العالمية درسا وتأليفا، إذ احتضنت هذه البادية "مجموعة البداية الوحيدة التي تملك تقاليد ثقافية مكتوبة بينما يعيش الآخرون [أهل البوادي الأخرى] عائلةً على أهل المدن" (18).

وقد لاحظ بعض الدارسين هذه الخصوصية التي ميزت سكان الصحراء الموريتانية عن غيرهم من سكان المنطقة حين تحدثوا عن مظاهر من الثقافة العالمية في هذه البادية. يقول الرحالة الفرنسي كامب دُولس (Camille Douls): "إن البيضان يتخذون من خيامهم أكاديميات حقيقية" (19). ويمضي هذا الرحالة الذي زار المنطقة سنة 1887 قائلا : "إن جميع هؤلاء البداءة تقريبا يتعاطون كتابة العربية" مؤكدا أن "المعرفة والذكاء اللذين يميزان هؤلاء البدو يبلغان درجة من التطور تُعدّ مفارقةً لما يطبع المسلمين المقيمين بإفريقيا الشمالية". (20)

(17) الخليل النحوي، بلاد شنقيط، المنارة .. والرباط، مرجع سابق.

(18) محمد المختار بن السعد، شريبه أو أزمة القرن 17 في الجنوب الغربي الموريتاني، المعهد الموريتاني للبحث العلمي، نواكشوط، 1993، ص. 53، (نقلا عن محمد ولد مولود ولد داداه).

(19) راجع :

Camille Douls, "Cinq mois chez les Maures nomades du Sahara Occidental", Paris, Tour du Monde, I, 1888, pp. 117-224, p. 206.

(20) المرجع نفسه والصفحة ذاتها.

وينحو المستشرق الفرنسي رني باسي (René Basset) المنحى نفسه حين يجزم "بأن لدى البيضان ثقافة أدبية أرقى مما لدى جل سكان الجزائر" (21).

وهكذا فإذا كانت البادية في عرف الدارسين - منذ ابن خلدون وإلى اليوم- تعتبر بيئة غير صالحة للإنتاج الفكري ناهيك عن الازدهار العلمي والفني فإن واقع المحاضر التي ميزت بوادي موريتانيا منذ القرن السابع عشر وواقع الحواضر الإسلامية في الفترة نفسها يُبين أن البادية ليست دائما رديفة الجهل والأمية كما أن المدينة لا تساوي بالضرورة الازدهار المعرفي. فما هي سمات تلك المدارس البدوية ؟

السمات العامة للمحضرة :

تميزت المدارس التقليدية في موريتانيا بميزات لعل من أبرزها:

1. الحرية :

فالطالب المحضري يتمتع بحرية اختيار:

- المحاضرة التي سينتسب إليها؛
- الشيخ الذي سيدرس عنده؛
- المادة والمتن اللذين يرغب في دراستهما؛
- الفترة الزمنية الملائمة لدراسته.

وتسمح هذه المساحة الواسعة من الحرية بمستوى من تحقيق الذات يجعل جل الطلاب يتعاطفون تعاطفا وجدانيا مع محيطهم المحضري.

2. المساواة :

فالمحضرة تكاد تكون الفضاء الوحيد الذي تذوب فيه مختلف أشكال التمايز الطبقي والعرقى، إذ يتحدد الانتساب إليها بالرغبة والاستعداد دون اعتبار المكانة الاجتماعية أو فوارق السن، فالرجل الطاعن في السن قد يدرس مع الشباب كما أن الشاب اليفاع قد يتولى تدريس من هم أسنّ منه.

(21) نقل عن : Faidherbe, *Le Sénégal et La France dans l'Afrique Occidentale*, Paris, Hachette, 1889, p. 45

هذا فضلا عن عدم اعتبار المستوى المادي، إذ لا فرق بين غني وفقير، بل إن المحاضرة طورت آليات تبناها المجتمع مع اختلافات جزئية بين نواحي البلاد لعل من أهمها :

- "التأبيد" الذي يقتضي التكفل بالطالب المغترب أو المعدم؛
 - "الختمة" التي تُوجب تقديم هدايا للتلاميذ كلما تقدموا مراحل معينة في دراستهم؛
 - "شاة التلاميذ" التي تُقدم لهم في مناسبات اجتماعية معينة (الزواج، العقيقة).
- وتجسد هذه "الحقوق" مستوى ما من التكافل يضمن التعليم لمن يرغب فيه.

3. المجانية :

- الانتساب إلى هذه المدارس لا يتطلب رسوما؛
 - الميسورون يدرسون على نفقة ذويهم؛
 - المعدمون ينفق عليهم شيخ المحظرة، أو بقية الحيّ أو يتقاسمون مع زملائهم الميسورين.
- وتجسد هذه "المجانية" درجة ما من التآزر الاجتماعي ساهمت في تسهيل التعلم.
- غير أن هذه المزايا يجب أن لا تحجب عنا جملة من المآخذ على التعليم المحضري يمكن تلخيصها في النقاط التالية:
- عدم العناية غالبا بلغة التدريس؛
 - الإذعان التام، في الأغلب، للوثيقة المكتوبة وإعطائها قدسية تحول دون نقدها؛
 - ندرة التأليف والتركيز على الشروح وعلى عقد النصوص النثرية بالنظم؛
 - التسرع أحيانا وعدم النسبية في رؤية المسائل التي تحتمل عدة أوجه.

الأدوار التي اضطلعت بها المحاضرة :

تعتبر الوظيفة الأساسية لهذه المدارس هي نشر العلوم والأخلاق الإسلامية بما يقتضيه ذلك من التركيز على ما يعرف بعلوم الغاية (القرآن، الفقه، العقيدة، الحديث)، غير أن استيعاب هذه العلوم يستدعي بالضرورة معرفة بعلوم الآلة وخاصة العلوم اللغوية التي يتوقف على معرفتها فهم النص الديني من قرآن وسنة.

وقد أدرك الموريتانيون ما لعلوم الآلة من قيمة في استيعاب العلوم الشرعية، ففضلوا الاشتغال بها على الاشتغال بالعبادة. يقول الشيخ محمدن فال بن متالي (ت. سنة 1287 هـ - 1871) بهذا الشأن :

تَعَلَّمَ اللُّغَةَ شَرَعًا فَضَّلَ عَلَى التَّخْلِى لِعِبَادَةِ الْجَلِيِّ
يُؤْخَذُ ذَا مِنْ قَوْلِهِ وَعِلْمَا آدَمَ الْأَسْمَاءَ الزَّمَّ التَّعَلُّمًا (22)

غير أن للمحاضرة أدوارا أخرى تتعدد بتعدد وظائف شيوخ المحاضر وغيرهم من علماء وفقهاء هذه البلاد الذين يقومون في الوقت نفسه بوظائف التدريس والإمامة والتوجيه والدعوة والوعظ والتربية الروحية (مشايخ طرق صوفية) والقضاء والإفتاء.

وهم إلى ذلك يضطلعون بمهام :

- مستشارين لدى الأمراء؛
- كتبة للأمراء، وتظهر غالبا بصماتهم على مختلف مراسلات هؤلاء الأمراء؛
- وسطاء في النزاعات والحروب الداخلية؛
- سياسيين يدعون إلى إقامة السلطة الإسلامية؛
- مجاهدين ضد احتلال النصارى للمسلمين.

(22) محمدن فال بن متالي، الديوان.

وانطلاقاً من وظائف المحاضرة الشنقيطية المشار إليها سابقاً كانت هذه المؤسسة في وقت واحد أداة لصيانة التراث وقلعة للدفاع عن الأرض والإنسان.

1. المحاضرة وصيانة التراث :

كانت المحاضرة رمز الثقافة العربية الإسلامية، فهي المنبع الروحي الأوحد الذي يحترمه العدو والصدّيق ويهابه السارق واللص والمسالمة والمتجبر والفقيه العابد والأمير الجائر، على حد سواء. وذلك ما جعل حكم الفقيه في المنازعات ماضياً - في الغالب - يخضع له الجميع. ⁽²³⁾ ورغم قوة منافستها المدرسة الجديدة التي روجت لثقافة المستعمر الوافدة، فإن المحاضرة كانت وسيلة للدفاع عن التراث وحمايته، وحسب اعتراف الفرنسيين أنفسهم "مثلّت المحاضر خلال الفترة الاستعمارية قلعة حصينة للصمود والمناعة الثقافية". وظلت المحاضرة حاملة مشعل الثقافة العربية الإسلامية في البلاد الموريتانية تنشرها وتدرّسها وتدافع عنها. يقول أحد الفرنسيين : "لقد انتصب في مواجهتهم [يعني الفرنسيين] عدو قديم وقوي هو تعليم المحاضر الذي يتطلب قهره تبني سياسة مدرسية حكيمة وبذل مجهودات كبيرة". ⁽²⁴⁾

وهكذا فبفضل التنشئة المحضرية ورواج أطروحات هذه المؤسسات الثقافية امتاز الموريتانيون بالتشبث بقيم دينهم والتمسك بموروثهم الثقافي والاعتزاز بتاريخهم وثقافتهم والاحتفاظ بهويتهم المميزة. والفرنسيون أنفسهم يؤكدون هذه الحقيقة. يقول أحد الإداريين الفرنسيين في هذا السياق: "لقد وجدنا [في موريتانيا] شعباً له ماض من الأمجاد والفتوح لم يغيب بعد عن ذاكرته، ومؤسسات اجتماعية لا نستطيع أن نتجاهلها. إن علاقات تضامن وثيق تسود بينهم رغم بداوتهم وتمزقهم". ⁽²⁵⁾

(23) محمد بن عبد الحي، المحاضرة، مرجع سابق.

(24) أنظر:

André Lecourtois, *Etude expérimentale sur l'enseignement islamique traditionnel en Mauritanie*, Entreprises et développement, 1978, p. 32.

(25) تقرير من الحاكم الفرنسي العام لغرب إفريقيا إلى وزير المستعمرات الفرنسي يتعلق بمهمة كويولاني في منطقة الترازه بالجنوب الغربي الموريتاني (كانون الأول 1902)، الأرشيف الوطني الموريتاني، نواكشوط، الملف E1/8.

وقد ساعد الدرس المحظري وما يتطلبه من متون دينية وما يتحلى به القيمون عليه من أخلاقيات على حفظ وصيانة التراث العربي الإسلامي في هذه الثغور الشنقيطية المرباطة. ذلك ما يؤكد الدكتور محيي الدين صابر حين يقول : "إن الثقافة العربية التي أثرت عن المدن التاريخية الموريتانية إلى عهد قريب كفلت للتراث الإسلامي العربي البقاء والاستمرار من خلال المؤسسات التي ينتجها المجتمع الموريتاني سواء في المراكز العلمية المستقرة أو المتنقلة والتي يمثلها نظام المحاضر".⁽²⁶⁾

ويعترف أحد الفرنسيين الذين حكموا موريتانيا إبان الفترة الاستعمارية بنجاح المحاضرة في تأدية رسالتها الحضارية مؤكداً أن "المحاضر قد تمكنت، على العموم، من الصمود في وجه الغزو الثقافي الأجنبي واضطلت برسالتها المتمثلة في صيانة تراث ثقافي يمثل بالنسبة لها مدعاة فخر واعتزاز".⁽²⁷⁾

ويتأكد هذا الفخر والاعتزاز في هذين البيتين اللذين مثلا شعار هذه المدارس المتنقلة على ظهور الإبل :

ونحن ركب من الأشراف معتكف أجل ذا العصر قدرا دون أدنانا

قد اتخذنا ظهور العيس مدرسة بهانبين دين الله تبياناً⁽²⁸⁾

وطبيعي أن تمثل التعاليم الدينية والأخلاقية التي بنتها المحاضر وعممتها داخل هذا القطر - وفي الأقطار الإفريقية المجاورة أحيانا - صماماً أمان ضد مخاطر الغزو الثقافي الأجنبي وذلك بما ترسخه من مناعة ضد ثقافة المستعمر وحضارته المادية الغازية وبالتالي ضد مدرسته البديلة، ذلك ما يصرح به الفرنسيون أنفسهم على لسان رئيس مصلحة التعليم الابتدائي شينيو (Chaigneau) في تقرير بتاريخ غرة أكتوبر سنة 1934 حين يقول : "إن البيضان، وقد اعتنقوا الإسلام منذ عدة قرون، كان من بينهم وما زال علماء وفقهاء

26) محيي الدين صابر، جريدة الشعب، رقم 1702، الصادرة في 18 فبراير 1981، نواكشوط.

27) أنظر: André Lecourtois, *Etude expérimentale sur l'enseignement islamique*, op.cit.

28) المختار بن بونه (ت. سنة 1218هـ/1804)، الديوان.

معروفون في جميع البلاد الناطقة بالعربية. ونحن نتفهم كونهم -غيره على ماضيهم- لا ينظرون إلى حضارتنا بحماس، فالثقة بيننا معدومة الآن".⁽²⁹⁾

2. المحاضرة قلعة لمقاومة التوغل الاستعماري داخل موريتانيا :

تعود جذور المقاومة الثقافية إلى بدايات الاحتكاك مع الفرنسيين، إذ نجد الفرنسي شامبونو المعاصر لحرب شريبه التي عرفت المنطقة خلال النصف الثاني من القرن السابع عشر يعترف ببعض تجليات هذه المقاومة حين يقول: "أما رجال الدين فيفخرون بتجنبهم لنا (...). كما أنهم يزددوننا كثيرا بسبب الاختلاف بين ديننا وشعوذتهم موهمين قومهم أننا نشترى العبيد لكي نأكلهم. ومنذ أن سيطروا على البلاد فإن عبدا واحدا لم يصل إلى سفننا".

وكثيرا ما تمتزج وتتزامن تجليات المقاومة الثقافية مع العسكرية والسياسية مجسدة الإطار الديني والخلفية الإيديولوجية لمواجهة الاستعمار. فهذا الأمير البركني المختار ولد سيدي (1841-1843) عندما اختطفه الفرنسيون ونفوه إلى قرية نائية في الغابون ينشط بصفته مرابطا يدعو إلى الله وينشر الإسلام حتى بسط نفوذه الروحي على القرية.⁽³⁰⁾

لقد استشعرت النخب الدينية والعسكرية خطورة الموقف منذ البداية وحاولت أن ترسم في وعيها صورة لما سيكون عليه الأمر ما لم يبادر القوم بالتصدي للغزو الذي بات في حكم المحقق.

وقد شعرت الأرستقراطية الدينية - وهي المسيرة للمحاضر والمشرقة عليها - مبكرا (على الأقل منذ النصف الأول من القرن التاسع عشر) بخطر التوسع الفرنسي المتزايد في حوض نهر السنغال، فاضطلع شيوخ المحاضر وخريجوها من فقهاء وعلماء بدور كبير في التحذير من هذا الخطر المحدق ودعوا إلى مواجهته بالوسائل المتاحة قبل فوات الأوان.

(29) تقرير رقم 795، 1934/10/01، الأرشيف الوطني، نواكشوط/موريتانيا، ملف رقم E2/44.

(نقلا عن: الخليل النحوي، بلاد شنقيط، المنارة والرباط...، مرجع سابق، ص.).

(30) الخليل النحوي، بلاد شنقيط، المنارة.. والرباط، مرجع سابق، ص..

ويمكن أن نسوق نماذج من مواقف زعماء هذه الأرستقراطية المعارضة لمسار التوغل الفرنسي داخل البلاد. وقد تجلت تلك المعارضة خصوصا من خلال :

أ. عرقلة الاستكشافات الفرنسية :

من أوضح الأمثلة في هذا الصدد موقف القوم من الرحالة الفرنسي رني كايي (René Caillié) أثناء تجواله في منطقة البراكنة بالوسط الجنوبي من البلاد الموريتانية سنتي 1824 و 1825، إذ لم ينج هذا المستكشف من موت محتوم لو لم يوهم السكان أنه يدعى عبد الله وأنه مولود في مصر من أسرة عربية وأن فرنسيين شاركوا في حملة نابليون على مصر عادوا به إلى فرنسا، وهو حينها ما يزال صبيا، وأن سيده الفرنسي أرسله في بعثات تجارية إلى السنغال وأعتقه مكافأة له على خدماته، وبما أنه استعاد حريته، فهو يسعى إلى العودة إلى وطنه مصر للقاء أهله وممارسة شعائر دينه. (31)

ورغم تظاهره باعتناق الإسلام وادعائه الانتماء إلى أصول عربية، فقد ظل ذلك الرحالة الفرنسي مثار شك، واتهم أكثر من مرة بأنه جاسوس للنصارى جاء ليحمل إليهم أسرار البلاد والعباد. (32)

كما أن رجال الدين قد أفسلوا، خلال ربيع 1860، مهمة نقيب الأركان العامة المستكشف هانري فينصان (Vincent) مبعوث الوالي الفرنسي على السنغال الجنرال فيدرب (Faidherbe) إلى منطقة أدرار بالشمال الموريتاني بغية جمع المعلومات عنها ومحاولة الوصول إلى مدنها التاريخية وتوقيع اتفاقية تجارية مع أميرها، بل إن المشايخ اقترحوا على الأمير قتل هذا الضابط الفرنسي. (33)

(31) راجع تفاصيل تلك المعلومات في رحلته:

René Caillié, *Voyage à Tombouctou*, Paris, Editions La Découverte, 1989, pp.

(32) المرجع نفسه.

(33) راجع ذلك في رحلته :

Henri, Vincent, "Voyage et expédition au Sénégal et dans les contrées voisines. Voyages dans l'Adrar et retour Saint-Louis", Paris, Tour du Monde, 1860, pp. 17-33 et pp. 49-64, p.

ب. محاولة توحيد الجبهة الداخلية ضد الخطر الأجنبي :

حذر شيوخ المحاضرميكرا من احتمال غزو "النصارى" ودعوا إلى التعبئة وإلى الجهاد ضد هذا الغزو، بل إن من بينهم من حاولوا تنسيق جهود مختلف جيوب المقاومة.

وتدخل في هذا النطاق مساعي الشيخ سيدي الكبير (ت. سنة 1284هـ/1868م) التي توجت باجتماع تندوجه⁽³⁴⁾ سنة 1856، وقد حضره أمراء البراكنة والترارزة وآدرار وممثل عن إمارة إدوعيش، وهي الإمارات الأربع التي كانت تنقسم وقتئذ السيادة على البلاد الموريتانية الحالية.

وجاءت مبادرة عقد هذا الاجتماع بعد اندلاع الحرب بين أمير الترارزة محمد الحبيب (ت. سنة 1277هـ/1860) والوالي الفرنسي على السنغال الجنرال فيدرب، وهي الحرب التي سعى الفرنسيون من ورائها إلى بسط نفوذهم على الضفة اليسرى لنهر السنغال وتغيير شروط التبادل مع البيضان بالضفة اليمنى.

ولم يكتف الشيخ سيدي الكبير بجمع الأمراء ومحاولة إقناعهم بإصلاح ذات البين وتوحيد الصف ضد الفرنسيين، بل إنه عمل على توفير العتاد للمقاومة محاولا تصنيع البارود محليا. وما تزال الذاكرة الشعبية تحتفظ بتسمية "اعليب البارود" إشارة إلى المكان (الكثيب) الذي تمت فيه تلك المحاولة. كما طلب هذا الشيخ من الملك المغربي المولى عبد الرحمن تزويده بالأسلحة. وفضلا عن ذلك فإن بعض المشايخ قد دفع الأمراء إلى مقاومة الغزو الفرنسي.

ج. تشجيع ودعم الأمراء على مواجهة الفرنسيين :

شجع العلماء أمراء البلاد على التصدي للفرنسيين وافتوا بوجوب دعم ومساندة هؤلاء الأمراء بالمال والفتاوي بوصفهم أهل الشوكة ورأس الحربة في أية مواجهة ممكنة مع "النصارى".

(34) بئر تقع إلى الشمال من مدينة أبي تلميت التي تبعد حوالي 150 كلم إلى الشرق من مدينة نواكشوط.

وقد استفادت من هذا الدعم بجوانبه المادية والمعنوية الأرستقراطية العسكرية في مختلف أنحاء الوطن، إذ تمكن الأمير البركني محمد بن سيدي (ت. سنة 1274هـ/1858) في معركة الركبة⁽³⁵⁾ من هزيمة تحالف ضم ابن عمه ومنافسه على الإمارة سيدي علي الثاني (ت. سنة 1310هـ/1893) والفرنسيين وحلفاءهم من أهل والو⁽³⁶⁾، رغم أن الفرنسيين -وحسب مصادرهم الأرشييفية ذاتها-⁽³⁷⁾ رموا بتقلهم في المعركة ضد خصمهم محمد بن سيدي الذي كان مدعوما - في هذه المعركة - ماديا ومعنويا بوجود الشيخ سيدي الكبير وتلامذته بالمعسكر، فكانت نتيجة هذه المعركة هزيمة واضحة للفرنسيين وحلفائهم.

وفي إمارة الترازه المجاورة، يؤكد الشيخ سيدي دعمه للأمير التروزي محمد الحبيب في حربه ضد الجنرال فيدرب الطامح إلى بسط النفوذ الفرنسي بالمنطقة. يقول هذا الشيخ في رسالة موجهة إلى الأمير: "هذا وإته من عبد ربه الغني به سيدي بن المختار بن الهيبه إلى سيد أقرانه ومقدم أهل زمانه محمد الحبيب بن أعمر بن المختار نضر الله أيامه ونصر أعلامه وأعانه على إقامة الدين ومكنه من نواصي أرباب الكفر المعتدين [...] وبعد فإننا نوصيك بتقوى الله العظيم واقتفاء سنة نبيه الكريم ونؤكد عليك في الوصية بثلاثة أمور أحدها أن تحسن نيتك في مجاهدتك للكفرة الذين أنت بصدد مجاهدتهم بأن تنوي بمجاهدتك لهم أداء فرض الكفاية [...] وأعلم أيضا أننا معك بهمتنا ودعائنا وعنايتنا ورعايتنا في جميع ما أنت فيه من نصره دين الله وإعلاء كلمة الله وإسفال كلمة الكفر بالله والمعصية...".⁽³⁸⁾

ويدعو اجدود بن اكنوشني، هو الآخر، إلى مؤازرة الأمير محمد الحبيب ومواجهة الخطر الفرنسي باستخدام الوسائل العسكرية والاقتصادية اللازمة

(35) موضع يبعد حوالي 50 كلم إلى الغرب من مدينة بوغي عاصمة ولاية البراكنة بالوسط الجنوبي للبلاد الموريتانية.

(36) والو: تسمية تطلق أصلا باللغة الولفية على السهل الفيضي الممتد على ضفتي نهر السنغال.

(37) بخصوص هذه المعركة وتفاصيلها تمكن مراجعة الأرشيف السنغالي :

Série D : Affaires militaires (1763-1920) : Sous Série 1 D : Opérations militaires, Sénégal et Dépendances (1823-1894), Expédition contre les Maures, 1854-1856.

(38) راجع : رسائل الشيخ سيدي، مخطوط.

لمقارعة الأعداء. يقول ضمن قصيدة مطولة في هذا الموضوع : حاصر المسلمين جنْدُ النصرى بيد الله أن يزيل الحصارا

[...]

وانزلوا "الزبره" وانزلوا "كنارا"	أيها المسلمون شدوا عليهم
واجعلوا خشية الإله شعارا	سارعوا للجهاد بعد التواني
إن في خونه لذلا وعارا	لا تخونوا إمامكم واتصروه
لجهاد العدو إلا فرارا	قد دعاكم فلم يزدكم دعاه
أوحيدٌ يروم فتح النصرى؟	طالما حاول الجهاد وحيدا
واقتلوا المشركين والفجارا	فاتصروه ينصركم الله طرا
وبرجل يهزم الأمصارا	يا حبيبا أوجف عليهم بخيل
واشتروا الخيل والقلاص المهارا (39)	وأعدوا من القوى ما استطعتم

ويمضي هذا الشاعر داعما الحصار الذي فرضه الأمير التروزي محمد الحبيب على بيع الصمغ العربي للفرنسيين، وهو الحصار الذي تضررت منه بعض القبائل الزاوية التي ينتمي إليها الشاعر نفسه :

أتعينون آثما كفارا	لا تُعينوا بالعلك حزب الأعادي
أن يصروا على الأذى إصرارا	فاقطعوا عنهم الشراء حذارا
وأصروا واستكبروا استكبارا (40)	فإذا ما أعنتموهم أساؤوا

ويقول الشيخ سيدي محمد بن الشيخ سيديا من قصيدة طويلة :

فراموا كل ما راموا اختبارا	وروم عاينوا في الدين ضعفا
برغم منهم ازدجروا ازدجارا	فإن أنتم سعيتم وانتدبتهم
برغم منكم ابتدروا ابتدارا	وإن أنتم تكاسلتم وخنتم
حيارى لا انتداب ولا ائتمارا	فألفوكم كما ييغون فوضى
وثاروا كي ينالوا منه ثارا	وقالوا إن للفرص انتهازا

(39) اجنود بن اکتوشني، الديوان، ص.

(40) المرجع نفسه.

ولم أعرف وسوف ترون عما	قريب صبح ليلكم استنارا
مهى حور المدامع عاطفات	تخوض بها القراقير البحارا
تلطمها العلوج على حدود	كسا ألوانها الفزع اصفارا
وحلوها خلخل من قيود	وقد كانت لجينا أو نضارا
وأغللا بأجباد وأيد	تعودت القلادة والسوارا
تكلفها بنات الروم قسرا	بخدمتها رواحا وابتكارا
وتكره للذي كانت تــــراه	حللا وهي طائعة شنارا (41)

د. الهجرة :

كانت الاستجابة للحدث الاستعماري بعد أن أصبح واقعا يعيشه الناس متفاوتة، وتمثل الموقف الديني من هذه النازلة في بروز قطبين رئيسيين ينظر أحدهما لقبول الاستعمار بوصفه يكرس واقعا أفضل من واقع السببية والاقتتال الداخلي الذي كان قائما، بينما يعارض الآخر أي نوع من التعامل مع الاستعمار. وقد استند القطبان كلاهما على قراءة معينة لنصوص الكتاب والسنة وأقوال العلماء، وساقا مسوغات مؤسسة شرعا ومنطقية عقلا ومقبولة سياسيا.

ونظرا لطبيعة الموضوع فإننا سنقتصر على أمثلة من آراء ومواقف القطب الرفض للتعامل مع الفرنسيين. فقد تباينت الفتاوى من قائل بالجهاد المسلح، إلى مفت بالهجرة عن بلد تغلب فيه الكفار إلى مكثف بهجرة داخلية يقصر أصحابها الصلاة في بلدهم لأنهم يعدمون فيه الأمن ولأنهم في حالة حرب مع المحتل، إلى مقتصر على تحريم التعامل مع الغزاة بالاتجار أو توفير الأخبار والمراكب... فضلا عن الانتظام في جيشه أو الانخراط في مدرسته وهي الأداة الأساسية لإعداد معاونين من كتبة ومترجمين...إلخ.

فها هو الشيخ حماد الله يعلن الجهاد بدون سلاح وينشر الدعاية ضد المستعمر ويقصر الصلاة سنتين معتبرا البلاد في حالة حرب. ويصدر الشيخ محمد الأمين ولد أحمد زيدان سنة 1905 فتواه الصريحة: "حكم المسلم عند احتلال أرضه قصر الصلاة".

(41) انظر أحمد بن الأمين الشنقيطي، الوسيط، مرجع سابق، 1961.

وتكثر الفتاوى المتعلقة بوجوب الهجرة من البلاد بعد سقوطها في قبضة الكافر ومقاطعة المدرسة الاستعمارية:

- الشيخ ماء العينين بن الشيخ محمد فاضل (1328-1910)، "هداية من حارا في أمر النصارى"،

- سيدي أحمد ولد حبت (1374-1954)، "مهدية الحيارى إلى حكم من غلب على وطنه النصارى

- الشيخ محمد العقاب ولد مايابه، "مزيل الحرج في رد ما عند من اسقط الهجرة من الحجج".

ويذهب الفقيه أحمد بن الهادي إلى حد اعتبار من يقيم مع الكفار أو يقدم لهم العون مثلهم، فيفتي بحلية مال من "سكن مع النصارى وأعانهم" (42).

ورغم أن السلطات الاستعمارية فرضت رقابة صارمة على العلماء والمشايخ الموريتانيين وأخضعت تحركاتهم لترخيصات خاصة وفتحت لهم ملفات استخباراتية (43)، فقد هاجر العديد من العلماء والأمرء وشملت الهجرة بعض الأسر وأحيانا بعض المجموعات (44).

ويشير فرانسيس دو شاسي إلى أن "هناك تيارات دينية أثارت قلق السلطات الاستعمارية وخرجت على سيطرتها كالجماعة الغظفية في

(42) سجل محمد العقاب ولد مايابه هذا الرأي شعرا حين يقول :

وماله والأهل والبنونا فيئ به فاز المهاجرونا

انظر: إزيد بيه ولد محمد محمود، الزوايا في بلاد شنقيط في مواجهة الاستعمار الفرنسي، المطبعة الوطنية، نواكشوط، 2001، ص. 329.

(43) تضمنت بيانات مفصلة عن الشخصية المعنية: عدد الطلبة والأكتبا والعلاقات الخارجية والصلة بالشيوخ الآخرين والأسفار والكتب المتوفرة وتأدية أو عدم تأدية فريضة الحج والعلاقة بالمغرب والموقف من الفرنسيين، إلخ. (أنظر النموذج المرفق).

(44) تشير إلى هجرة سيدي المختار ولد سيدي ولد الشيخ القاضي ومحمد عبد الله ولد احمدية ومحمد الأمين ولد زيني القلقمي الذي هاجر من الحوض سنة 1908 صحبة 600 رجل تصحبهم عائلاتهم، وقد خلفوا اثرا طيبا في ليبيا والأردن وتركيا. راجع: محمد محمود ولد ودادي، البرابيش، مطبعة زيد بن ثابت، دمشق، 1986.

آدرار وتكانت وأتباع الشيخ إبراهيم انياس في موريتانيا وأتباع الشيخ حماد الله".⁽⁴⁵⁾

هـ. مقاطعة المدرسة الاستعمارية :

لم يستطع المحتل اختراق الحاجز الذي أقامه السكان سورا بينهم وبينه حتى بعد أن أصبح يحكمهم بشكل فعلي، فقد ظلوا ينظرون إليه بعين الريبة والتوجس، ويؤثرون اعتزاله مفضلين عزلتهم في الفيافي، بل إنهم، في بداية الأمر، أضفوا نفس الموقف على الذين تعاملوا معه من تراجمة (أماليز) ورؤساء مجموعات قبلية (سيقات) وحراس ومخبرين... إلخ.

وكان للمدرسة الاستعمارية (l'Ecole) الحظ الأوفر من تلك المقاطعة، فقد نظر إليها كأداة للتنصير. وعلى عكس المحظرة التي كانت تشد إليها الرحال من منطقة إلى أخرى رغبة في استكمال فن أو الاطلاع على كتاب نادر أو لمجرد الالتقاء بشيخ ذائع الصيت...، فقد لجأ الموريتانيون إلى شتى الطرق للتهرب من المدرسة الاستعمارية التي كانت تثير في أنفسهم الرعب إن هي حلت بحي من أحيائهم⁽⁴⁶⁾. ولذلك اعتبرت المدرسة نازلة يتعين تبين موقف الشرع منها، فسجل العلماء فتاواهم بشأنها نظاما ونثرا، وكانت موضوع مساجلات شعرية يطرح فيها السؤال الفقهي شعرا فتتوارد الإجابات شعرا كذلك من كل من يصله ذلك السؤال⁽⁴⁷⁾.

(45) راجع : Francis de CHASSEY, *La Mauritanie 1900-1975*, l'Harmattan, 1984, pp. 143-144.

(46) يقول الشيخ أحمد بن أحمدزي الحسني مهنا قومه بفشل مشروع مدرسة كانت ستفرض على حبيهم :

الحمد لله على ما نفسه	من الكروب بسقوط المدرسه
مدرسة الروم عن أبناء الحسن	وقد يراها غيرهم أمرا حسن
وهم يرونها بعين الأرمد	ليس بها هاد ولا من مهتد

(47) يقول محمد بن محمد المصطفى البارتي :

ملح البلاد ما جواب سائل	عن حكم أمر في البلاد نازل
إسلامنا أولادنا الصغار	طوعا إلى مدارس النصارى

فأجابه من بين من أجابه محمد الأمين بن محمد مولود اليعقوبي :

وقد اضطلعت المحاضرة بدور متميز في مجال مقاطعة المدرسة الاستعمارية. فقد رأى شيوخ المحاضر في التعليم الوافد خطراً يهدد المحاضرة فتصدوا لها بكل ما أوتوا من قوة، وأفتى بعضهم بعدم جواز الانتساب إلى هذه المدارس.

وقد استدعى الأمر من السلطات الفرنسية إجراءات قسرية حتى تحصل على زبناء ولو قلة للمدرسة الاستعمارية فلم تتكلم مجهوداتها تلك بالنجاح.

وأمام هذا الواقع ارتأى الفرنسيون أن يستبدلوا المدرسة المنبوذة (l'Ecole) بنمط آخر من التعليم العصري لقي بعض النجاح في مناطق أخرى من العالم الإسلامي، هو (la Medersa) التي تدرس من بين ما تدرس العلوم الشرعية واللغوية؛ واستوردوا لهذه الغرض مدرسين من الدول العربية بل واكتتبوا لها لاحقاً بعض الشيوخ المحليين، عساها تتجح في كسب ثقة الناس وتجعلهم يقبلون على ما تحويه من حصص باللغة الفرنسية.

ولكن المدرسة اصطدمت بممانعة شديدة وبفتاوى تحرم تعلم خطوط الكفار وتلقى علومهم التي يسعون - حسب وعي القوم - من خلالها إلى تغيير العقائد من الإيمان إلى الكفر وإحلال ثقافة المستعمر محل الثقافة المحلية وبالتالي القضاء على الهوية الإسلامية للبلد.

وقد استمرت مقاطعة المدرسة الحديثة حتى في ظل الدولة المستقلة لأن هذه المدرسة بالنسبة لبعض شيوخ المحاضر ربيبة المدرسة الاستعمارية ولأن برامجها تشمل اللغة الفرنسية وغيرها من المقررات التي لا يسمح الشرع - حسب هؤلاء المشايخ - بتدريسها.

وهكذا فقد اضطلعت هذه المدارس الأهلية بأدوار متعددة (تعليمية، اجتماعية، مهنية، سياسية وحضارية) داخل موريتانيا وخارجها.

لبالغ عند الملاح المهره	جاء تعلم خطوط الكفره
لكافر يبعثه في المكتب	ومنعوا إسلام نجله الأب
على الذي أعطاه فيما اشتهرا	وإثمه بعد إذا تنصرا

3. الإشعاع المحضري خارج موريتانيا :

كان للمحضرة الموريتانية وما يزال إشعاع متميز في المنطقة عموما وفي ربوع إفريقيا الغربية على وجه الخصوص، ذلك أن "سفراء المحضرة" كانوا يجوبون أصقاع تلك المنطقة داعين بالتي هي أحسن ناشرين عقيدتهم الإسلامية ولغتهم العربية بأخلاقهم الفاضلة التي كانت تلاقي رواجاً كبيراً في صفوف السكان وحتى داخل البلاطات، إذ "كان الأمراء الأفارقة الذين يعتقدون الإسلام يتخذون شيوخاً من البيضان يعلمونهم أحكام الدين ويقرنونهم القراء ويؤمنون بهم الصلاة ويبدلون النصيح للمسلمين" (48).

وقد تظن الفرنسيون إلى هذه الأدوار التي يضطلع بها الموريتانيون. يقول المستكشف الأب لابات (Le Père Labat) الذي تجول في المنطقة في ملتقى القرنين السابع عشر والثامن عشر : "إن مشايخ البيضان هم الذين نقلوا الإسلام إلى الزنوج، ولذلك كان لهم تأثير قوي على تلك الشعوب التي تعتبرهم أساتذة مرشدين في كل مسألة لها صلة بالدين وتستشيرهم في معظم أمورها" (49).

ويشير الرحالة موليين (Mollien) وقد زار المنطقة في مطلع القرن التاسع عشر، إلى دور هؤلاء البيضان في نشر الدين الإسلامي عبر أصقاع القارة الإفريقية فيقول : "إن سرعة نجاحهم [البيضان] تجعلنا نفترض أن المبشرين المسيحيين في رأس الرجاء الصالح، قبل أن يتمكنوا [...] من دخول المناطق الوسطى من القارة الإفريقية، سيلاقون [هنالك] مسلمين" (50).

وسيتواصل الحديث عن هذا الدور على امتداد القرن التاسع عشر إذ نجد الرحالتين بول صولبي، وبول بلانشي -وقد زارا مخيم الشيخ سعد بوه على

(48) الخليل النحوي، المنارة والرباط، مرجع سابق، ص. 259.

(49) راجع :

J. B. Labat, Le Père, *Nouvelle relation de l'Afrique occidentale*, Paris, Th. le Gras et G. Cavalier, 1728, 5 vol.

(50) أنظر :

Gaspard Théodore Mollien, Voyage dans l'intérieur de l'Afrique et aux sources du Sénégal et de la Gambie, fait en 1818 par ordre du Gouvernement français, Imprimerie de Madame Veuve Courcier, Paris, 1820, 2 volumes, 337-319 p. Deuxième Edition, Paris, 1822, Arthus Bertrand, 2 vol.

التوالي سنتي 1880 و 1900- يتحدثان عن إشعاع تلك الشخصية الدينية البارزة وما يتوفر عليه ذلك الشيخ من الأتباع الكثر في مختلف مناطق إفريقيا الغربية (51)

وقد اعترف موليين بمزايا اعتناق الشعوب الإفريقية للدين الإسلامي قائلا : "إن الديانة المحمدية التي اعتنقتها تقريبا كل الشعوب الإفريقية التي زرتها قد أنارت عقولهم وصقلت أخلاقهم وطباعهم وحطمت في صفوفهم تلك الممارسات الهمجية التي يحتفظ بها الإنسان في حالة الوحشية" (52). ويواصل هذا الرحالة في السياق نفسه متحدثا عن زواج المنطقة، وقد اعتنقوا الإسلام : "إن رواياتي تستهدف في الوقت نفسه البرهنة على أن هؤلاء الزنوج، الذين ننظر إليهم وكأنهم همج، بعيدون من أن يكونوا محرومين تماما من المعارف. إنهم ليسوا أقل تطورا من معظم سكان البادية في القارة الأوربية" (53).

ويؤكد الإداري الفرنسي بول مارتي (Paul Marty) الذي شغل وظائف سامية في مستعمرة السنغال انتشار الدعوة الإسلامية في المنطقة على أيدي الموريتانيين قائلا : "توجد أعداد مهمة من مشايخ البيضان في كافة القرى والمدن السنغالية حيث يسيرون مدارس لتعليم القرءان واللغة العربية، إنهم دعاة أقوياء للإسلام" (54).

ويشير هذا الفرنسي إلى العلاقة بين التطورات الحاصلة في السنغال ودعوة شيوخ وأئمة المحاضر الموريتانية جازما بسيطرة الموريتانيين الدينية على تلك البلاد. يقول : "إن التحولات السياسية والدينية التي عرفها السنغال خلال

(51) راجع كلا من :

- ✓ Paul Soleillet, *Rapport à Monsieur le Ministre des Travaux Publics sur le voyage de Saint-Louis à l'Adrar*, décembre 1879-mai 1880, 154 p., Centre des Archives d'Outre-Mer, Aix-en-Provence, Série : Missions, Carton 2: Missions et Voyages (dossier Paul Soleillet).
- ✓ Paul Blanchet, *Rapport de mission en Adrar (Mauritanie)*, 1900, 36 p., Centre des Archives d'Outre-Mer, Aix-en-Provence, Série: Affaires Politiques, Carton 2711, Chemise n°4, (dossier Paul Blanchet).

G. Th. Mollien, *Voyage dans l'intérieur de l'Afrique*, op.cit., p. (52) راجع :

G. Th. MOLLIEN, *Voyage dans l'intérieur de l'Afrique*, op.cit., p. (53) راجع :

Paul Marty, *L'Emirat du Trarza*, Paris, Editions Larose, 1919, p. 17 (54) راجع :

القرن الثامن عشر مثل ثورة الإمام عبد القادر وقيام دولة الأمة على أنقاض مملكة التكرور واعتناق ملوك والو للإسلام، هي نتيجة لجهود بعثات الدعاة التي كان العلماء الشناقطة يرسلونها إلى المنطقة.. وبصفة عامة فإن الإسلام دخل السنغال وانتشر فيه بفضل المشايخ والعلماء الموريتانيين وأتباعهم وإنه اليوم خاضع للقيادة الدينية لهؤلاء المشايخ، إما مباشرة أو بشكل غير مباشر" (55).

ويشيد أحد الإخوة العرب بالدور الذي اضطلع به الموريتانيون في نشر اللغة العربية والدفاع عنها فيقول: "كان للموريتانيين دور لا بد أن يذكر في تعزيز صمود اللغة العربية داخل السنغال.. وقد ظل هؤلاء الموريتانيون بمثابة الدعامة الأساسية التي قامت عليها مختلف خنادق الدفاع عن اللغة العربية أمام الغزوة الاستعمارية الشرسة" (56).

ويتعجب بول مارتى، وهو من زعماء المدرسة الاستعمارية، من كون الموريتانيين قد تمكنوا حتى خلال فترة السيطرة الاستعمارية من "غزو إفريقيا" متجاوزين السنغال إلى أقطار عديدة من الغرب الإفريقي رغم الاحتلال الفرنسي المباشر. يقول: "إن مشايخ البيضان قد أقبلوا على غزو إفريقيا في ظل الاستعمار، وشملت فتوحاتهم هذه السنغال، غامبيا، غينيا، ساحل العاج، الداهومي، السودان (مالي) مستغلين ظروف الأمن التي وفرها الفرنسيون" (57).

وهكذا لم تقتصر المقاومة الثقافية على البلاد الموريتانية، بل امتدت لتشمل المناطق المجاورة خاصة في إفريقيا الغربية مستفيدة من التطورات الحاصلة أثناء الفترة الاستعمارية، فتمكنت من فتح المنطقة دينيا وثقافيا، إذ نجد الحاكم العام لغرب إفريقيا كورناري (Cournarie) يبدي سنة 1944 قلقه من تزايد عدد المسلمين في المنطقة بصورة مذهلة حيث ارتفع من 3 875 000 سنة 1924 إلى 6 241 000 سنة 1936 مما "ينذر" بانتشار الإسلام في منطقة غرب إفريقيا كلها ويمس من سمعة فرنسا وهيبتها. (58)

(55) راجع : Paul Marty, *L'Emirat du Trarza*, op.cit., pp. 4-5.

(56) فهمي هويدي، العربي، ربيع 1402.

(57) راجع : Paul Marty, *L'Emirat du Trarza*, op.cit., pp. 18..

(58) راجع : Francis de CHASSEY, *La Mauritanie 1900-1975*, l'Harmattan, 1984, p. 136.

وبفضل المحاضرة أيضا سعى علماء وفقهاء هذا الإقليم إلى مد جسور الاتصال مع البيت العربي ودار الإسلام، وحرصوا على صيانة واستمرارية تلك الجسور رغم العراقيل الجمة. وفي هذا النطاق تمكن الإشارة إلى :

أ. رحلات الحج الشنقيطية : وقد بقيت مستمرة رغم صعوبة ومخاطر الطريق وقساوة المناخ وتخلف وسائل النقل ووعورة الطرق الموصلة إلى هذا الجزء الهامشي من بلاد الإسلام الواقع في النواحي الجنوبية الغربية من الصحراء الكبرى وهو "بعيد الأطراف كثير المفاوز صعب المسالك كثير المهالك، وفي زاوية الإسلام موضوع وبعضه خلف البحر مقطوع، فلا فيه راغب ولا له ذاهب" (59).

ب. استجلاب أمهات الكتب والمتون : فكان العلماء الشناقطة حريصين على توفير هذه المصادر شراء أو استنساخا من الحواضر المغربية والمصرية والحجازية. ذلك ما تظن إليه بعض المستشرقين الفرنسيين من أمثال بول ديبي (Paul Dubié) الذي يقول : "إن العديد من العلماء الموريتانيين يمتلكون مكتبات غنية. ويقوم بعضهم أحيانا برحلات إلى إفريقيا الشمالية وإلى الديار المقدسة. وهم يتوفرون على مستوى رفيع في مجال العلوم الدينية والشرعية" (60).

ج. الدراسة أو التدريس : كان من دواعي العديد من رحلات طلاب وخريجي المحاضر الموريتانية إلى المغرب أو المشرق العربيين، فضلا عن تأدية فريضة الحج، السعي إلى الاستزادة من العلم والبحث عن المتون والحصول على الإجازات حيث درسوا أو درسوا في بعض الجامعات العربية (فاس، القرويين، الزيتونة، الأزهر.. إلخ..).

ولقد استدعى الإرث الحضري وما أفضى إليه من تمسك قوي بالجذور الحضارية مجهودا مضنيا ويائسا من قبل الفرنسيين المستعمرين الذين سعوا بكل ما أوتوا من قوة إلى بتر أبناء المحاضرة عن تلك الجذور تسهيلا

(59) شمس الدين أبو عبد الله محمد المقدسي، أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، ليدن، 1906، ص. 216.

(60) أنظر :

Paul Dubié, *La vie matérielle des Maures*, Mémoires de l'Institut Français de l'Afrique Noire (I.F.A.N.), n° 23, Dakar, 1953, pp. 111-252, p. 119.

لترويضهم وإخضاعهم، إذ "زجوا بموريتانيا في إفريقيا الغربية الفرنسية واتخذوا مدينة سين-لوي السنغالية مقرا لحكومتها فاضين على هذا الشعب الانتبات عن جنوره" (61) وذلك حسب تعبير أحد الفرنسيين.

ورغم ذلك بقيت صلات الموريتانيين بإخوانهم العرب -بفضل المحاضر- حميمية وواصلوا تأدية رسالتهم التاريخية في هذا الجزء من القارة الإفريقية. يقول المستشرق الفرنسي بول ديبي في هذا السياق: "إن المراكز الإسلامية [القائمة على المحاضرة] في موريتانيا حيوية جدا. فالعديد من العلماء [وهم شيوخ المحاضر] يمتلكون مكتبات غنية. [...] ولا شك أنهم يمثلون بؤرة العروبة والإسلام الأكثر حيوية في إفريقيا الغربية". (62)

أما في المشرق العربي، فنكتفي بسوق مثال واحد من رموز هذه المحاضرة هو الشيخ الشنقيطي محمد محمود بن التلاميذ التركي (ت. سنة 1322هـ/1904) وكان من أشهر الشناقة في المشرق وأكثرهم حوارات وخصومات. فحين انتقل من الحجاز إلى القاهرة وجد العلماء الأنداد مثل الشيخ محمد عبده ومحمد توفيق البكري ورشيد رضا.

وقد توطدت علاقات الشنقيطي على وجه الخصوص بمفتي الديار المصرية الذي وجد له مرتبا من الأوقاف وأسند إليه مهمة التدريس بالأزهر وكلفه ببرنامج لإحياء التراث العربي الإسلامي.

وسنفسح المجال أمام نماذج من الشهادات المصرية المعبرة المتعلقة بخريج وأستاذ المحاضرة الشنقيطية هذا.

يشير طه حسين في كتابه الأيام إلى هذه الفترة من حياة ابن التلاميذ قائلا : "كان أولئك الطلبة الكبار يتحدثون بأنهم لم يروا قط ضربيا للشيخ الشنقيطي في حفظ اللغة ورواية الحديث سندا ومتنا عن ظهر قلب. وكانوا يذكرون أن له

(61) راجع : André Lecourtois, *Etude expérimentale sur l'enseignement islamique*, op.cit.

Paul Dubié, *La vie matérielle des Maures*, op.cit., p. 119

(62) أنظر :

مكتبة غنية بالمخطوط والمطبوع في مصر وفي أوروبا، وأنه لم يقتع بهذه المكتبة وإنما ينفق أكثر وقته في دار الكتب قارئاً أو ناسخاً⁽⁶³⁾.

ويسير أحمد حسن الزيات في السياق نفسه حين يذكر في مقال له بمجلة الأزهر أن هذا الشنقيطي كان "آية من آيات الله في حفظ الحديث والأخبار والأمثال والأنساب لا يند عن ذهنه من كل أولئك نص ولا سند ولا رواية"⁽⁶⁴⁾. ويرسم الزيات صورة لأستاذه الشنقيطي لا تخلو من دقة فيقول: "إنه هيكل ضئيل وبدن نحيل ووجه ضامر ولون أخضر وصوت خفيض، فمن يراه، لأول مرة، لا يصدق أن هذا الجرم قد جاب البر والبحر وطاف الشرق والغرب وكافح الأنداد والخصوم ووعى صدره الضيق معاجم اللغة وصحاح السنة ودواوين الشعراء وعلم الآداب"⁽⁶⁵⁾.

التحديات الأساسية :

لقد واجهت المحاضر على مدى تاريخها الطويل نسبياً تحديات لعل أبلغها تأثيراً على بنيتها وأدوارها عوامل من أهمها :

1. منافسة المدرسة الحديثة

فقد ظلت المحاضر لقرون عدة المسؤول الوحيد عن تنشئة الأجيال وبالتالي عن صياغة المجتمع طبقاً لرؤية دينية أطرها الفقهاء المالكي والمعتزلي الأشعري.

وفجأة ظهر التعليم النظامي وأفداً جديداً تعززه آليات منهجية ومضمون معرفي لا عهد للتعليم المحظري بهما. وإذا كانت المحاضرة - بفضل قدرتها التعبوية ومصادقيتها لدى العامة بوصفها الناطق الرسمي باسم الشرع - قد استطاعت أن تثني غالبية السكان عن ارتياد المدرسة النظامية في العهد

(63) طه حسين، المجموعة الكاملة، المجلد الأول : الأيام، دار الكتاب اللبناني، الطبعة 2، 1974، ص 343-344.

(64) أحمد حسن الزيات، "كيف عرفت الشنقيطي"، مجلة الأزهر، المجلد 33، سبتمبر 1961، ص 391-392.

(65) أحمد حسن الزيات، "كيف عرفت على الشنقيطي"، المرجع السابق، ص 394.

الاستعماري باعتبارها مدرسة النصارى لغةً ومحتوىً، فإن التعليم الرسمي قد عرف قفزة مهمة في ظل دولة الاستقلال وبدأ يفرض نفسه على شرائح واسعة من الوسط الاجتماعي الخاص عادة بالمحضرة مبعداً أعداداً متزايدة من الشباب عن ارتياد هذه المؤسسة تحت تأثيرات إغراء المدينة والبحث عن بدائل لتوفير العيش الكريم بعد أن تخلخلت قاعدة الاقتصاد الريفي بفعل الجفاف.

2. الجفاف

لا شك أن الجفاف الذي ضرب المنطقة منذ سبعينيات القرن المنصرم - بما شكله من خلخلة للبنية الاقتصادية ومنظومة العلاقات الاجتماعية والقيمية - كان شديد الوطأة على المدارس الأهلية التي هي بالأساس مؤسسات بدوية تنتشر أساساً في الأحياء والتجمعات الريفية وتعتمد بالتالي على تربية المواشي وما تجود به من لبن ولحم وصوف، وعلى منتوج زراعي مكمل قليل في غالب الأحيان جراء اعتماد الزراعة على الأمطار غير المنتظمة وتخلف الأدوات والأساليب الزراعية.

وقد تسبب هذا الجفاف الذي أتى على الأخضر واليابس في نزوح مكتسح من الأرياف إلى المدن الكبرى التي عرفت - جراء ذلك - اكتظاظاً ديمغرافياً حاداً.

وكان لهذا النزوح السكاني الكبير تأثيره البالغ على المحضرة التي فقدت أعداداً كبيرة من منتسبيها الفعليين والمحتملين. كما أن الفاقة الكبيرة التي خلفها هلاك الزرع والضرع زادت من تفاقم وضعية المحضرة التي لم تستقر قاعدتها في المدينة بعد، فلم تعد تحصل على التبرعات "والأوقاف" لصالح الطلاب "المؤبدين" كما كان في السابق، مما أفقد شيخ المحضرة في الغالب الأعم قدرته المعهودة على الاحتفاظ بهؤلاء "المؤبدين". ولم تعد الأسر قادرة على تجهيز أبنائها لإرسالهم إلى المحضرة بالزاد الضروري. فكانت النتيجة من كل ذلك أن عرفت أعداد طلاب المحضرة تناقصاً حاداً هدد وجودها في الصميم.

4. الحاجة إلى الاكتتاب :

وجدت الدولة الحديثة نفسها غداة الاستقلال أمام حاجيات كبيرة تستدعي إطاراً بشرياً قادراً على سدها في مختلف الأجهزة الحكومية. وبدأت المحضرة

جهة مرشحة لتوفير هذا الإطار. وهكذا انخرط المحظرون في مختلف قطاعات الدولة. وقد قاد تعريب التعليم والقضاء لاحقاً أعداداً كبيرة من الأطر المحضرة إلى قطاعات التعليم والعدالة والصحافة إلخ..، فأصبحت موجات متزايدة من طلبة المحضرة تهاجر باستمرار إلى المدن لتجرب حظها في الامتحانات والمسابقات الرسمية باحثة عن وظيفة قارة.⁽⁶⁶⁾

ومن الطبيعي أن ينعكس هذا الوضع على المحضرة التي باتت تفقد وبشكل مستمر نسبة كبيرة من منتسبيها قبل أن يكملوا تعليمهم المحظري ليؤسسوا محاضر جديدة كما كان يحدث لو أن الأمور جرت على ما كانت تجري عليه.

5. تغير النظرة إلى التعليم :

لقد كان لتغير القيم دور لا يمكن تجاهله، إذ لم يعد الطالب يتعلم لوجه الله أو سعياً إلى تبوء مكانة اجتماعية مرموقة كما كان في السابق، وإنما بات التفكير في التحصيل المادي والبحث عن المنفعة المباشرة والكسب السريع أحد محركات وحوافز الطلبة. بل إن النزعة المنفعية استفحلت لتطغى أحياناً على بعض شيوخ المحاضر ذاتها، إذ يبدو أن ظاهرة "مؤسسات الجيب" التي نصادف بموجبها منظمات وشركات لا وجود لها خارج ملفات أصحابها، قد بدأت تغزو قطاعات الثقافة والتهذيب حتى بتنا نلاقي أحياناً "شيوخ" محاضر أدعياء لا يتقنون القراءة ولا الكتابة، في حين لا يتورعون عن استجداء العون لمحاضرهم الوهمية حتى من الهيئات والبلدان الأجنبية.

انتشار وسائل الاتصال :

وطبيعي أن تتأثر المدارس التقليدية بالتطورات الحاصلة على الصعيد الدولي. فالثورة التقنية والفقر المذهلة في مجال الاتصالات والمواصلات؛ كل ذلك أدى إلى تعقد وتداخل نمط الحياة العصرية وإلى تزايد وتعدد الاهتمامات والانشغالات بشكل ربط المدن بالأرياف وحدّ من عزلة هذه المناطق عن العالم

(66) لا بد هنا من التنويه بالدور المتميز الذي اضطلع به المركز الثقافي المصري في نواكشوط في ستينيات وسبعينيات القرن الماضي والمتمثل في فتح الباب واسعاً أمام طلاب المحاضر وتوفير الكتب الحديثة لهم ومساعدتهم في تحضير المسابقات والامتحانات والشهادات.

الخارجي كما حدّ من هدوئها، هذه العزلة وذلك الهدوء اللذان كانا من عوامل التحصيل المحظري المعتمد على الحفظ والاستظهار؛ فما ذا بقي لهذا التعليم إذن من أدوار؟ وهل انتهت الحاجة إليه؟

التعليم المحظري ودوره في الظروف الحالية :

إذا كانت العوائق التي تحدثنا عنها أعلاه - من بين عوائق أخرى عديدة - تبرز ما يواجه التعليم الأهلي من تحديات جدية تمسّ مقومات وجوده الأساسية، فإن ذلك لا يعني أن هذا التعليم سيتخلّى عن إسهامه في صياغة معارف الناس وسلوكهم في هذا الزمن العربي الصعب، بل إن التعليم المحظري بما أثر عنه من مرونة في الأدوات والأساليب ما زال يحتفظ بمخزون ثرّ يؤهله لخدمة أهداف الاستراتيجية العامة للدولة في مجال التعليم ومحو الأمية. غير أن نجاح هذا النمط من التعليم - بل وبقائه - يبدو مرهونا بقدرته على التجدد الذاتي معرفيا ومنهجيا. ولكي يتسنى له ذلك يتعين عليه أن يستجيب لجملة من الضرورات لعل أكثرها إلحاحا:

1. المواءمة بين الأصالة والمعاصرة :

- إذ تواجه المدرسة التقليدية رهانا صعبا يتمثل في:
- صيانة إرثها التاريخي ومميزاتها الأساسية (حرية المنهج، المساواة في طلب العلم، المجانية)؛
- المحافظة على الخصائص الثقافية والقيم الدينية للأمة؛
- الانفتاح على العصر والاندماج في مسار التنمية والتعامل مع مستجدات الظرفية الدولية بموضوعية وتبصر ومرونة.

2. مراجعة المقررات :

فقد بات التفكير في مراجعة المقررات والمناهج والوسائل التربوية مسألة ملحة ربما يتوقف عليها مستقبل التعليم المحظري نفسه. ويمكن أن تشمل هذه المراجعة من بين أمور أخرى :

- العناية بمادة التاريخ الذي كان ينظر إليه تقليديا على أنه "علم لا ينفع وجهالة لا تضر".

- البحث عن صيغ ووسائل لدمج تدريس الحساب والعلوم واللغات الحية والمعلوماتية والتسيير والتربية مواكبة للعصر وانفتاحا على ما يتجدد من معارف وتقنيات.

3. مراعاة متطلبات سوق العمل :

تجب العناية بالتكوين العملي والبحث عن الطرق الملائمة التي تعطي لخريجي المحاضر فرصا أكثر للحصول على العمل والمساهمة في عملية التنمية، ذلك أن التوازن التقليدي الذي كان يسمح باستيعاب غالبية هؤلاء الخريجين قد اختل جراء التحولات الجديدة وغدت المنافسة في سوق التشغيل أكثر حدة. ففرص العمل المتاحة باتت تتطلب كفاءات وتخصصات ذات مواصفات معينة.

وتجسيدا لهذا المطلب وتمشيا مع مراعاة الظروف الجديدة أصبح من الملح المواءمة بين مقررات المحاضر وحاجات الدولة، وذلك من أجل توفير المزيد من فرص العمل للخريجين والحد من أعباء البطالة.

وهكذا سنتمكن المحاضر من أن توائم بين رسالتها التاريخية ومهامها المستجدة، وتكون في المستقبل أداة من أدوات التنمية ووسيلة من وسائل توازن المجتمع والمحافظة على القيم الإسلامية السمحة بما تجسده من تأزر واعتدال ووسطية.

فواقع الأمية الراهن وما تتمتع به المحاضر من مصداقية لدى جميع الأوساط يجعل المحاضرة اليوم من أهم الأطر المؤسسية القادرة على بث المعارف كما كانت بالأمس. وقد شهد شاهد من أهلها ذات يوم (الفرنسي أندري لكوريتوا (André Lecourtois) أنه "بفضل المدارس البدوية [المحاضر] ونظامها التعليمي كانت نسبة الأميين منخفضة في موريتانيا بخلاف بلدان إفريقية وآسيوية عديدة" (67).

(67) راجع : André Lecourtois, *Etude expérimentale sur l'enseignement islamique traditionnel*, op.cit., p. 44.

وجملة القول أن المقاومة الثقافية التي عرفتھا هذه الربوع بقياة وتأطير من شيوخ المحاضر قد ساهمت مساهمة كبيرة في صيانة التراث الثقافي والحضاري ورفعت اسم البلاد بأعلام كان لهم حضور متميز على مستوى العالم الإسلامي، ومكنت بالاعتماد على إمكانيات محدودة من الصمود في وجه التغريب والمسخ الثقافي وساعدت في التثبث بخصوصيات هذا الشعب، حيث "صاحب الاستعمار حماس ديني عارم، إذ ازداد البيضان خلال الفترة الاستعمارية تمسكا بالإسلام وتطبيقا لشعائره، فانتشر التدين بين مختلف المراتب والفئات الاجتماعية"⁽⁶⁸⁾. والمهمة نفسها اليوم تقتضيها تحديات العولمة الثقافية والتباس الحق بالباطل نتيجة انتشار تيارات الغلو والتكفير.

(68) انظر: Francis de CHASSEY, *La Mauritanie 1900-1975*, l'Harmattan, 1984, p. 136.

المصادر والمراجع

أولاً. باللغة العربية

- ابن بابيه (محمد فال)، كتاب التكملة في تاريخ إمارتي البراكنه والترارزه، تحقيق أحمد ولد الحسن، تونس، المؤسسة الوطنية للترجمة والتحقيق والدراسات-بيت الحكمة، قرطاج، الطبعة الأولى، 1986.
- ابن جببر، الرحلة، دار صادر للطباعة والنشر، بيروت، 1964.
- ابن حامد (المختار)، حياة موريتانيا، الحياة الثقافية، الجزء 2، الدار العربية للكتاب، تونس، 1990.
- ابن خلدون (عبد الرحمان)، المقدمة، دار الجيل، بيروت، د.ت.
- ابن عبد الحي (محمد)، المحظرة : (ماهيتها، نشأتها، تطورها، بنيتها ومحتواها، وظيفتها)، عرض مقدم لندوة عن المحاضر في موريتانيا، نواكشوط، يوليو 1998.
- إزيد بيه (ولد محمد محمود)، الزوايا في بلاد شنقيط في مواجهة الاستعمار الفرنسي، المطبعة الوطنية، نواكشوط، 2001.
- الزركلي (خير الدين)، الأعلام : قاموس تراجم، دار العلم للملايين، بيروت، المجلد السابع، 1990.
- الزيات (أحمد حسن)، "كيف عرفت الشنقيطي"، مجلة الأزهر، المجلد 33، سبتمبر 1961، صص. 391-395.
- الشنقيطي (أحمد بن الأمين)، الوسيط في تراجم أدباء شنقيط، القاهرة، مكتبة الخانجي، مصر ومكتبة الوحدة العربية، الدار البيضاء، الطبعة 3، 1961.
- الشيخ (محمد المامي)، كتاب البادية، مخطوط.
- الشيخ سيدي الكبير (ابن المختار ولد الهية)، الميزان القويم والصرط المستقيم، مخطوط.

- الصوفي (محمد ولد محمد الأمين)، المحاضر الموريتانية وآثارها التربوية في المجتمع الموريتاني، رسالة ماجستير، جامعة الملك سعود، 1406.
- طه (حسين)، المجموعة الكاملة: الأيام، المجلد الأول، دار الكتاب اللبناني الطبعة الثانية، 1974.
- الكنتي (الشيخ سيدي محمد بن الشيخ سيدي المختار)، الرسالة الغلاوية، مخطوط، المعهد الموريتاني للبحث العلمي، نواكشوط.
- المحاضرة نت" موقع على شبكة الإنترنت تحت عنوان : (NET AL MAHDRA MR).
- محمّدو (محمّدن أمين)، المحاضر الموريتانية (الجامعات البدوية المتنقلة)، مجلة التاريخ العربي، العدد الثاني والعشرون، الرباط، 2002، صص. 339-361.
- مصطفى (إبراهيم)، المعجم الوسيط، المكتبة العلمية، طهران، بدون تاريخ، جزآن، مادة حظر.
- المقدسي (شمس الدين أبو عبد الله محمد)، أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، ليدن، 1906.
- النّاني (ابن الحسين)، صحراء المثلثين وعلاقاتها بشمال وغرب إفريقيا من منتصف القرن الثامن إلى نهاية القرن الحادي عشر الميلادي، أطروحة دكتوراه في التاريخ، جامعة محمد الخامس، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، الرباط، 771 ص. 1999.
- النحوي (الخليل)، بلاد شنقيط، المنارة.. والرباط. عرض للحياة العلمية والإشعاع الثقافي والجهاد الديني من خلال الجامعات البدوية المتنقلة (المحاضر)، تونس، 1987.
- الندى (محمد المصطفى)، دور المحاضر في موريتانيا، مذكرة تخرج، المعهد العالي للدراسات والبحوث الإسلامية.
- ودادي (محمد محمود ولد)، البرابيش، مطبعة زيد بن ثابت، دمشق، 1986.
- ولد السعد (محمد المختار)، شريبه أو أزمة القرن 17 في الجنوب الغربي الموريتاني، المعهد الموريتاني للبحث العلمي، نواكشوط، 1993.

- ولد عبد الله (ددود)، الحركة الفكرية في بلاد شنقيط خلال القرنين الحادي عشر والثاني عشر (17-18م)، بحث لنيل دبلوم الدراسات العليا في التاريخ، جامعة محمد الخامس، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، الرباط، 1992-1993.

ثانيا. باللغة الفرنسية

- BLANCHET (Paul), *Rapport de mission en Adrar (Mauritanie)*, 1900, 36 p., Centre des Archives d'Outre-Mer, Aix-en-Provence, Série: Affaires Politiques, Carton 2711, Chemise n°4, (dossier Paul Blanchet).
- BRAUDEL (Fernand), *Ecrits sur l'histoire*, Paris, Flammarion, 1984.
- CHASSEY (Francis de), *La Mauritanie 1900-1975*, l'Harmattan, 1984.
- DOULS (Camille), "Cinq mois chez les Maures nomades du Sahara Occidental", Paris, Tour du Monde, I, 1888, pp. 117-224.
- FAIDHERBE (Louis), *Le Sénégal et La France dans l'Afrique Occidentale*, Paris, Hachette, 1889.
- LABAT (Jean Baptiste, Le Père), *Nouvelle relation de l'Afrique occidentale*, Paris, Théodore le Gras et G. Cavalier, 1728, 5 volumes.
- LECOURTOIS (André), *Etude expérimentale sur l'enseignement islamique traditionnel en Mauritanie*, Entreprises et développement, 1978.
- MARTY (Paul), *L'Emirat du Trarza*, Paris, Editions Larose, 1919.
- MOLLIEN (Gaspard Théodore), *Voyage dans l'intérieur de l'Afrique et aux sources du Sénégal et de la Gambie, fait en 1818 par ordre du Gouvernement français*, Imprimerie de Madame Veuve Courcier, Paris, 1820, 2 volumes, 337 319 p. Deuxième Edition, Paris, 1822, Arthus Bertrand, 2 vol.
- SOLEILLET (Paul), *Rapport à Monsieur le Ministre des Travaux Publics sur le voyage de Saint-Louis à l'Adrar*, décembre 1879-mai 1880, 154 p., Centre des Archives d'Outre-Mer, Aix-en-Provence, Série : Missions, Carton 2: Missions et Voyages (dossier Paul Soleillet).